- ١٢ -
الفرق بين المُحْكَم والمتشابه [١]

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالَمين نذيرًا ، فرسم للخلق العقيدة السليمة والمبادئ القويمة فى آيات بيِّنات واضحة المعالِم ، وذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم ، وتلك الآيات هى أم الكتاب التى لا يقع الاختلاف فى فهمها سلامة لوحدة الأمة الإسلامية وصيانة لكيانها : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] .

وقد تأتى هذه الأصول الدينية فى أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللَّفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحدًا ، فيشبه بعضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقض ، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن فى آياتها من العموم والاشتباه ما يُفسح المجال أمام المجتهدين الراسخين فى العلم ، حتى يردوها إلى المُحكَم ببناء الفروع على الأصول ، والجزئيات على الكليات وإن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى - وبهذا الإحكام فى الأصول والعموم فى الفروع كان الإسلام دين الإنسانية الخالد الذى يكفل لها خير الدنيا والآخرة على مر العصور والأزمان .

* * *

الإحكام العام والتشابه العام

المُحْكَم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت : بمعنى منعت ، والحكم : هو الفصل بين الشيئين ، فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين ، ويميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ويقال : حكمت السفيه وأحكمته : إذا أخذتَ على يديه ، وحكمت الدابة وأحكمتها : إذا جعلتَ لها حكمة : وهى ما أحاط بالحنك

---

(١) راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية عن المُحْكَم والمتشابه ، والتأويل فى التدمرية وغيرها من رسائله .

(٢) فصلت : ٣

من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب ، ومنه الحكمة : لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق ، وإحكام الشيء : إتقانه ، والمحكم : المتقن .

فإحكام الكلام : إتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره ، والرشد من الغى فى أوامره ، والمُحْكَم منه : ما كان كذلك .

وقد وصف الله القرآن كله بأنه مُحْكَم على هذا المعنى فقال : ﴿ الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ الر ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ (٢) ، فالقرآن كله مُحْكَم : أى أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وهذا هو الإحكام العام .

والمتشابه لغة : مأخوذ من التشابه : وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر ، والشبهة : هى ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينًا كان أو معنى ، قال تعالى : ﴿ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ (٣) أى يشبه بعضه بعضًا لونًا لا طعمًا وحقيقة ، وقيل : متماثلاً فى الكلام والجودة .

وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يُصَدِّق بعضه بعضًا ، وقد وصف الله القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾ (٤) فالقرآن كله متشابه : أى أنه يشبه بعضه بعضًا فى الكمال والجودة ، ويُصَدِّق بعضه بعضًا فى المعنى ويماثله ، وهذا هو التشابه العام .

وكل من المُحْكَم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافى الآخر ، فالقرآن كله مُحْكَم بمعنى الإتقان ، وهو متماثل يُصَدِّق بعضه بعضًا ، فإن الكلام المُحْكَم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه ، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر ، وإنما يأمر به أو بنظيره ، وكذلك الشأن فى نواهيه وأخباره ، فلا تضاد فيه ولا اختلاف : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (٥) .

* * *

---

(١) هود : ١ (٢) يونس : ١ (٣) البقرة : ٢٥

(٤) الزمر : ٢٣ (٥) النساء : ٨٢

الإحكام الخاص والتشابه الخاص

وهناك إحكام خاص وتشابه خاص ذكرهما الله فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتَاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ منْهُ ابْتغَاءَ الفتْنَة وَابْتغَاءَ تَأْويله ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ وَالرَّاسخُونَ فى العلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْد رَبِّنَا ﴾ (١) وفى معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها :

(أ) **المحكم** : ما عُرِفَ المراد منه ، **والمتشابه** : ما استأثر الله بعلمه .

(ب) **المحكم** : ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا ، **والمتشابه** : ما احتمل أوجهًا .

(ج) **المحكم** : ما لا استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، **والمتشابه** : ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره .

ويمثلون للمحكم فى القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده ، وللمتشابه ، بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته التى فى قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالكٌ إلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْديهمْ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهرُ فَوْقَ عبَاده ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَغَضبَ اللهُ عَلَيْهمْ ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ رَّضىَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ (٨) وقوله : ﴿ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ (٩) ، إلى غير ذلك ، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة .

* * *

(١) آل عمران : ٧ (٢) طه : ٥ (٣) القصص : ٨٨

(٤) الفتح : ١٠ (٥) الأنعام : ١٨ (٦) الفجر : ٢٢

(٧) الفتح : ٦ (٨) البينة : ٨ (٩) آل عمران : ٣١

الاختلاف فى معرفة المتشابه

وكما وقع الاختلاف فى معنى كل من المُحْكَم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف فى إمكان معرفة المتشابه ، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم فى الوقف فى قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ ﴾ هل هو مبتدأ خبره ﴿ يَقُولُونَ ﴾ والواو للاستئناف ، والوقف على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ ؟ أو هو معطوف و﴿ يَقُولُونَ ﴾ حال ، والوقف على قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ ﴾ .

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبَىّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم ، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون فى العلم آمنّا به » .

وبقراءة ابن مسعود : « وإن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنّا به » .

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعى المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة .

وعن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ ﴾ [1] ... إلى قوله تعالى : ﴿ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [2] قال رسول الله ﷺ : « فإذا رأيتَ الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم » [3] .

وذهب إلى الرأى الثانى (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد ، فقد أخرج عبد ابن حميد عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ ﴾ قال : « يعلمون تأويله ويقولون : آمنا به » ، واختار هذا القول النووى ، فقال فى شرح مسلم : إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته » [4] .

* * *

---

(١) آل عمران : ٧ (٢) آل عمران : ٧

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما . (٤) الإتقان (٢/ ٣) .

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل

بالرجوع إلى معنى « التأويل » يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين ، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان

الأول : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين .

الثانى : التأويل بمعنى التفسير ، فهو الكلام الذى يفسِّر به اللُّفظ حتى يُفهم معناه .

الثالث : التأويل : هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام ، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفات ، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفسه ما يكون فى اليوم الآخر ، وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة : « كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللَّهُمَّ ربنا وبحمدك ، اللَّهُمَّ اغفر لى » يتأوَّل القرآن » ، تعنى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١) .

فالذين يقولون بالوقف على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ (٢) ويجعلون : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ ﴾ (٢) استئنافًا ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث ، أى الحقيقة التى يؤول إليها الكلام ، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله .

والذين يقولون بالوقف على قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ ﴾ على أن الواو للعطف وليست للاستئناف ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثانى أى التفسير ، ومجاهد إمام المفسرين ، قال الثورى فيه : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، فإذا ذُكِرَ أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره .

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين فى النهاية ، وإنما الزمر يرجع إلى الاختلاف فى معنى التأويل .

---

(١) رواه البخارى ومسلم - (والآية من سورة النصر : ٣) .

(٢) آل عمران : ٧

ففى القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه فى الدنيا ، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة ، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه فى اللَّفظ والمعنى الكلى إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته ، والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها ، وأما نفس الحقيقة فهى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله ، ولهذا لما سُئِلَ مالك وغيره من السَلَف عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (١) قالوا : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » وكذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك قبله : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا الإيمان » ، فبيَّن أن الاستواء معلوم ، وأن كيفية ذلك مجهولة .

وكذلك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر ، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة ، ففى الآخرة ميزان ، وجنة ونار ، وفى الجنة : ﴿ أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاء غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ (٢) . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (٣) . . وذلك نعلمه ونؤمن به ، وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد ، وما فى الآخرة يمتاز عما فى الدنيا ، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا ، وهى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله .

* * *

التأويل المذموم

والتأويل المذموم بمعنى : صرف اللَّفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، إنما لجأ إليه كثير من المتأخرين مبالغة منهم فى تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون ، وهذا زعم باطل أوقعهم فى مثل ما هربوا

---

(١) طه : ٥ (٢) محمد : ١٥ (٣) الغاشية : ١٣ - ١٦

منه أو أشد ، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلاً إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يدًا لأن للمخلوقين يدًا ، فاشتبه عليهم لفظ اليد فأوَّلوها بالقدرة ، وذلك تناقض منهم ، لأنهم يلزمهم فى المعنى الذى أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم فى المعنى الذى نفوه ، لأن العباد لهم قدرة أيضاً ، فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقًا ممكنًا كان إثبات اليد لله حقًا ممكنًا أيضاً ، وإن كان إثبات اليد باطلاً ممتنعًا لما يلزمه من التشبيه فى زعمهم كان إثبات القدرة باطلاً ممتنعًا كذلك ، فلا يجوز أن يقال : إن هذا اللفظ مؤوَّل بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح .

وما جاء عن أئمة السَلَف وغيرهم من ذم للمتأولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين تأوَّلوا ما يشتبه عليهم معناه على غير تأويله وإن كان لا يشتبه على غيرهم .

* * *